

الاستبداد العامري بالسلطة وأثره على سقوط الخلافة الأموية عام 422هـ

هدى حسن النهوم / قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة بنغازي



## الاستبداد العامري بالسلطة وأثره على سقوط الخلافة الأموية عام 422هـ

ملخص البحث

وصلت الأندلس قمة ازدهارها السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والعلمي، وكانت ذروة في جيد الحضارة، وفجأة حصل تصدع وانحيار في ذلك البنيان العظيم الذي اجتهد الأمويون في إقامته على مدى ما يزيد عن قرنين ونصف القرن مما يدل على وجود نقاط ضعف في ذلك البنيان تمثلت في النزاعات القبلية، والعنصرية، والصراعات السياسية، والغريب في الأمر أن الانحيار حصل بسرعة كبيرة لا تتناسب إطلاقاً مع طول المدة التي استغرقها البناء والتشييد، ولعل ذلك كان تماشياً مع النواميس الإلهية. «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»<sup>[1]</sup> لقد تأذن الله تعالى بالهلاك لإغراق القوم الشديد في الترف (عصر الخلافة 316-399) فأمر الفسقة كشنجول والمهدي وغيرهما فجاسوا خلال الديار، وارتكبوا المعاصي والرذائل، والمنكرات، وبأيديهم وبأفعالهم القبيحة التي تنم عن الجهالة وسوء التدبير سطوروا الصفحات الأخيرة من تاريخ الخلافة الأموية بالأندلس.

يعد موضوع " الاستبداد العامري بالسلطة وأثره على سقوط الخلافة الأموية عام 422 هـ " من المواضيع المهمة في تاريخ الأندلس ، لم يخص بالعناية الكافية من قبل الباحثين ويحتاج إلى مزيد من الدراسات للوقوف على الأسباب الكامنة وراء ضعف خلفاء عصر الفتنة ( 399 – 422 هـ ) وعجزهم عن إدارة الأمور وتوجيهها في مسارها الصحيح . وتكمن أهمية الموضوع في أنه كان بداية النهاية لعصر كان يعد من أزهى عصور دولة الإسلام في الأندلس قاطبة ، ومقدمة لعصر كان شعار ملوكه " الإمارة ولو على حجارة "

وتهدف هذه الدراسة إلى بيان ما كان للعامريين من دور سلبي في إضعاف منصب الخليفة وسلب السلطات من يديه وتشريد البيت الأموي والتنكيل به ، مما أدى إلى عجز أغلب خلفاء الفتنة عن تسيير أمور الدولة واندلاع الصراع بينهم ، من أجل الظفر بالخلافة ، وما جره هذا الصراع إلى قيام حروب دامية تمت الاستعانة فيها بأعداء الدين ، وكان الشعب الأندلسي أكثر من تضرر منها واكتوي بويلاتها .

ولعل السبب الذي دفعني للخوض في هذا الموضوع رغم قلة المصادر التي تناولته ورغم ما يثيره في النفس من آسى وألم ، ما يعيشه العرب في العصر الحالي من أوضاع متردية وخلافات حادة وجدنا مثيلاً لها في التاريخ الأندلسي ، ولكن الآمال تحدوننا في أن لا يكون المصير متشابهاً . وتهدف الدراسة لاستلهام الدروس والعبر ومحاولة معالجة المشاكل بأساليب تجنبنا الوقوع في نفس المحاذير التي وقع فيها أجدادنا

قسمت الدراسة إلى خمسة مطالب فضلاً عن مقدمة وخاتمة وقائمة مصادر ومراجع على النحو التالي : المطلب الأول : التداول السلمي على السلطة في عصر الإمارة الأموية.

المطلب الثاني : الاستبداد العامري بالسلطة . والمطلب الثالث : موقف البيت الأموي من انتقال الحكم للعامريين . المطلب

الرابع : الصراع على السلطة بين الأمويين . المطلب الخامس : التنزاع على السلطة بين الحموديين والأمويين وإلغاء الخلافة.

(1) سورة مريم، الآية (16).

### Research Summary :

Andalusia reached the peak of its political, military, economic and scientific prosperity, and it was a jewel in the good of civilization, and suddenly there was a crack and collapse in that great structure that the Umayyads had worked hard to establish for more than two and a half centuries, which indicates the existence of weaknesses in that structure, represented in the Tribal disputes, racism, and political conflicts, and the strange thing is that the collapse happened very quickly, not commensurate with the length of time it took to build and construct, and perhaps this was in line with divine laws. “And if we want to destroy a village, we command it to be well-off, and they commit it to them”.

God Almighty has authorized destruction to plunge the extreme people into luxury (the era of the caliphate 316-399). The matter of immorality, such as Chanjul, the Mahdi, and others, they penetrated through the lands, and committed sins, vices, and evils, and with their hands and their ugly deeds that betray ignorance and mismanagement, they wrote the last pages of the history of the Umayyad Caliphate in Andalusia.

Abd al-Rahman al-Dakhil was able to establish a state for him in Andalusia and make the rule hereditary in his family for nearly three centuries. Thus, Andalusia recovered from what was mired in it from the struggle for power between Al-Qaysiyyah and Al-Yamaniya. - He took over the authorities and the state's management of the veil of Muhammad ibn Abi Aamer al-Mansur, who arrived in the situation until he commanded to greet the kings, but he aspired to be the caliph The Most Merciful, known for his shrewdness, coveted the caliphate and asked the legal caliph (Al-Moayad) to appoint him as guardian for his reign, and that request was the spark that unleashed the discord that Andalusians plagued for many years and which ultimately led to the weakening of the caliphate's position and its downfall in 422 AH

The topic of “Ameri tyranny in power and its impact on the fall of the Umayyad caliphate in 422 AH” is one of the important topics in the history of Andalusia. It was not concerned with adequate care by researchers and needs more studies to find out the reasons behind the weakness and impotence of the successors of the era of sedition (399-422 AH). For managing things and directing them on the right track.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

The importance of the topic lies in the fact that it was the beginning of the end of an era that was considered one of the most brilliant eras of the state of Islam in Andalusia as a whole, and an introduction to an era whose kings slogan was "the emirate, even on stones."

This study aims to clarify the negative role of the Amarites in weakening the position of the caliph, robbing the authorities from his hands, displacing the Umayyad house and harassing him, which led to the inability of most of the caliphs of sedition to run the affairs of the state and the outbreak of conflict between them, in order to win the caliphate, and what this conflict led to The bloody wars in which the enemies were used, the Andalusian people were the most affected by them and the woes of them. This study aims to clarify the negative role of the Amarites in weakening the position of the caliph, robbing the authorities from his hands, displacing the Umayyad house and harassing him, which led to the inability of most of the caliphs of sedition to run the affairs of the state and the outbreak of conflict between them, in order to win the caliphate, and what this conflict led to The bloody wars in which the enemies were used, the Andalusian people were the most affected by them and the woes of them.

Perhaps the reason that pushed me to delve into this topic despite the lack of resources that dealt with it and despite the grief and pain that the Arabs are experiencing in the current era in terms of deteriorating conditions and sharp disagreements we found similar to them in Andalusian history, but our hopes are that the fate will not be the same. Drawing inspiration from lessons and lessons and trying to address problems in ways that we avoid falling into the same caveats that our ancestors did

The study was divided into five demands, as well as an introduction, conclusion, and a list of sources and references as follows: The first requirement: the peaceful transfer of power in the era of the Umayyad emirate.

The second demand: Amiriya despotism in power. And the third requirement: the position of the Umayyad House on the transfer of power to the Amarites. Fourth requirement: the struggle for power between the Umayyads. Fifth requirement: the power struggle between the Hammoudids and the Umayyads.

المقدمة :

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس له دولة في الأندلس ويجعل الحكم وراثياً في أسرته قرابة ثلاثة قرون ، وبذلك انتشل الأندلس مما كانت غارقة فيه من الصراع على السلطة بين القيسية اليمانية ، فكان العرش ينتقل سلمياً بين أولاده وأحفاده إلى أن وصل هشام المؤيد - وكان طفلاً قاصراً - فاستبد بالسلطات وتدير الدولة حاجبه محمد بن أبي عامر المنصور الذي وصل به الأمر إلى أن أمر أن يجيى بتحية الملوك ، بل طمحت نفسه إلى أن يكون الخليفة ، ولكن خشيته من إثارة النعرة القلبية منعه من المضي في مشروعه الاستبدادي ، ولكن ابنه عبد الرحمن المعروف بشنجل طمع في الخلافة وطلب من الخليفة الشرعي ( المؤيد ) أن يعينه ولياً لعهد ، فكان ذلك الطلب الشرارة التي أطلقت الفتنة التي اكتوي الأندلسيون بناها أعموماً طويلة والتي أدت في نهاية الأمر إلى أضعاف منصب الخلافة وسقوطها عام 422هـ

المطلب الأول : التداول السلمي على السلطة في عصر الإمارة الأموية

كانت الإمارة الأموية في الأندلس - رغم استتباب أمورها - تعد من الناحية الشرعية إمارة خارجة عن الخلافة العباسية، وقد أدرك عبد الرحمن بن معاوية (138-172هـ) الذي كان يعد سليلاً لأسرة حاكمة وقع الانقلاب عليها ذلك، فدعا للخليفة العباسي زمنياً، ولم يتخذ لقب خليفة، بل كان يُخاطب بلقب ابن الخلائف. "وكان يسمى بالأمير تأدباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب"<sup>[2]</sup>. وظلت العملة على أيامه تُضرب باسم الخليفة العباسي، حتى يشعر الناس بأنه رغم كل شيء لم يخرج عن الشرعية<sup>[1]</sup> وأنه يحكم باسم رئيس الجماعة الإسلامية<sup>[3]</sup>.

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، إذ أن الداخل لم يلبث أن قطع الدعاء للعباسيين عام 139هـ، وبالطبع لم يُقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن شعر باستتباب الأمر له. "واستوسق الأمر للأمير عبد الرحمن، وأمر بلعن المسودة وقطع الدعاء لأبي جعفر المنصور"<sup>[4]</sup>، ولكن الإمارة الأموية مهما توافر لها من أسباب القوة السياسية والعسكرية كانت في حاجة كبيرة إلى سند شرعي يعطيها مكانة مرموقة في نظر الرعية، وبالتالي أحاط الأمراء أنفسهم بالفقهاء، وشجعوا المذهب المالكي الذي كان يُعد في جوهره مخالفاً للعباسيين<sup>[5]</sup>.

ويلاحظ أن عبد الرحمن بن معاوية عندما نجح في تأسيس دولته في الأندلس، وأحيا أجداد أسلافه في الغرب، لم يضع قاعدة ثابتة للحكم؛ فلم يعين أحداً من أبنائه ولياً لعهد، وإن كان قد ترك وصية غامضة وهو على فراش الموت يوصي فيها ابنه عبد الله الذي كان معه في قصر الإمارة بقرطبة أن يقدم خاتم الملك أو الإمارة لأول الواصلين من أبنائه سليمان - الذي كان

(<sup>2</sup>) أحمد بن محمد المقرئ: فتح الطب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر (بيروت، 1968) 330/1.

(<sup>3</sup>) كان الداخل يستند في مطالبته بحكم الأندلس على حقوق له منحها إياه جده الخليفة هشام بن عبد الملك (ووهب (أي هشام) لعبد الرحمن جميع الأخصاس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، فأقطعها إياها) = المصدر السابق، 333/1.

(<sup>4</sup>) حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، دار الرشد (القاهرة، 1997) صص 15-17.

(<sup>5</sup>) أبو عبد الله محمد ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، ط3 (بيروت، 1983) 48/2.

(<sup>6</sup>) مؤنس: شيوخ العصر، ص29.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

يحكم طليطلة وهشام - الذي كان يحكم ماردة - ويؤكد ابن عذارى في بيانه على أن الأمير ترك الأمر سباقاً بين الأخوين: "ومن سبق إليك من أخويك، فأرم إليه بالخاتم والأمر، فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفاهه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين إليه"<sup>[6]</sup>.

ويؤكد المقري على أن الأمير عبد الرحمن كان يميل لهشام ويرشحه للأمر بعده ويعهد إليه بالكثير من المهمات الصعبة<sup>[7]</sup>، وحسب الرواية التاريخية فإن هشاماً كان أول الواصلين إلى قرطبة، ويبيع له بالإمارة بعد وفاة أبيه بستة أيام<sup>[8]</sup>. وبالطبع لم يرض سليمان - وكان الأكبر سناً - بذلك، فأخذ يبيعه أهل طليطلة وما جاورها لنفسه، ووقع الصدام بين الأخوين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن الابن الثالث للداخل (عبد الله) والذي تعهد لأبيه وهو ينازع بتنفيذ وصيته، دخل هو الآخر المعترك السياسي وطمحت نفسه إلى السلطة، ووقعت الحروب بين الأخوة الثلاثة وراح ضحيتها الكثير من البشر<sup>[9]</sup>.

استمر التداول السلمي على السلطة في قرطبة، فكان الأمير الحاكم لكي يجنب الأخوة الصدام، يأخذ البيعة في الغالب لابنه الأكبر، إلا في بعض الحالات الاستثنائية، فبعد وفاة هشام عام 180هـ تمت مبايعة ابنه الحكم، وكان عبد الملك أسن منه، ويُفهم من عبارة أوردها ابن عذارى: "وحكمت بخلافة ابنه الأحكام" أن هشاماً كان قد رشحه لولاية عهده، وعندما اشتد المرض بالحكم أخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمغيرة بعده، وفي عام 238هـ يبيع لمحمد بالإمارة<sup>[9]</sup>، وبعد وفاته انتقل الحكم لأبيه المنذر وعبد الله، وقد تمت مبايعة الأمير عبد الرحمن بن محمد بعد وفاة جده عبد الله عام 300هـ "وقيل أن جده رمى بخاتمته إليه، إبانة منه لاستخلافه"، ولذلك بايعه الأعمام ولم يعترض أحد على توليه، وعندما ترعرع الحكم ولاه الناصر عهده من بعده<sup>[10]</sup>، وبالتالي لم يحفظ لنا التاريخ وقوع حروب وصدامات دموية عنيفة بين أفراد البيت الأموي مثلما حدث بعد وفاة الداخل، ولكن الأمر لا يخلو من وجود التحاسد والتنافس بين الأمراء الأمويين، وقد تم رصد بعض الحالات التي حاول فيها الأخ قتل أخاه في سبيل السلطة، ومن ذلك ما ذكره ابن حزم من تحايل عبد الله لقتل الأمير المنذر عندما أغرى حجّامه بالمال وجعله يضع له سماً في الموضع الذي فصده به وهو محاصر لابن حفصون في ببشتر، وما أشار إليه ابن عذارى من قتل المطرف بن عبد الله لأخيه محمد بعد أن رشحه الأمير عبد الله لتولي الأمر بعده، وكذلك قيام عبد الله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر بالتآمر مع آخرين بعد أن أعلن الحكم ولياً لعهد، ويقال بأن الناصر بعد أن اكتشف المؤامرة أقدم على قتل كل المشاركين فيها، بل بالغ فضحى بابنه عبد الله ثاني أيام عيد الأضحى المبارك وكان من أهل العلم والفضل<sup>[11]</sup>.

<sup>(6)</sup> البيان، 61/2.

<sup>(7)</sup> نفع الطيب، 334/1.

<sup>(8)</sup> أبو الوليد عبد الله بن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية السويدي، دار الكتب العلمية، ط1 (بيروت، 1997) ص12.

<sup>(9)</sup> البيان، 61-63، 70-71.

<sup>(10)</sup> لا يفوتنا هنا ذكر محاولة نصر الحصي اغتيال الأمير عبد الرحمن الأوسط بالسّم بعد أن فشل في نقل ولاية العهد من محمد الابن الأكبر للأوسط إلى أخيه الأصغر عبد الله بن طروب.

<sup>(11)</sup> ابن عذارى: البيان، 65/2، 77، 94، 114، 131، 157، 223.

<sup>(11)</sup> ابن عذارى: البيان، 156/2، 228.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

وإذا كان لتورث العهد ميزة وهي حقن الدماء، وتجنب الصدمات التي قد تقع بين الأخوة، فإنه في مرات كثيرة رفع إلى العرش أشخاصاً غير أكفاء كان توليهم لزمام الأمور نقمة وليس بنعمة، ويمكننا القول بأن الخليفة العالم المنتور - الحكم المستنصر بالله - جانب الصواب عندما أصر في عام 365هـ - وذلك تحت تأثير محظيته صبح - على إعلان ابنه القاصر هشام الذي لم يتجاوز الحادية عشر ولياً لعهد<sup>[1]</sup> متجاوزاً الأخوة، وكان فيهم من يتمتع بقدرات كبيرة ومؤهلات فائقة<sup>[12]</sup>، فانفتح على الأندلس بهذا القرار باباً للطامعين، كان من الصعب إغلاقه، بل أن هذا القرار الخاطيء كان بداية النهاية للخلافة الأموية التي غدت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ذرّة في جيد الحضارة.

لقد أثبتت الأيام أن هشاماً الذي تلقب بالمؤيد بالله كان مجرد رقم في قائمة أمراء الأسرة الأموية وخلفائها، إذ أنه لم يملك يوماً شيئاً من زمام الأمور، وكان لقمة سائغة في أفواه الطامعين في السلطة، وخاصة محمد بن أبي عامر، وكتب التاريخ تمتلئ بأخبار هذا الرجل الانتهازي الذي سيطر على مقاليد الأمور في قصر قرطبة عن طريق سيدة القصر الأولى صبح والدة الخليفة هشام، ويكفي هنا لبيان حال هذا الخليفة عبارة موجزة أوردها الحميدي يقول فيها: "فلم يزل متغلباً عليه، لا يظهر ولا ينفذ له أمر"<sup>[13]</sup>، وقول ابن الخطيب: "إذ كان في نفسه واصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر مجالسة النساء، ومحاذئة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات..."<sup>[14]</sup>.

### المطلب الثاني: الاستبداد العامري بالسلطة:

وعشية وفاة الحكم كان في القصر الخلافي من يرى ضرورة إعادة النظر في عهد البيعة الذي أبرم لهشام، لأن المصلحة العامة للمسلمين لن تتحقق بارتقاء قاصر للعرش، ولذلك قام العسكريون وعلى رأسهم جؤذر وفائق الصقليان، بترشيح المغيرة - أخ الحكم - ليتولى أمور الخلافة على أن يقر ابن أخيه هشام على ولاية العهد حتى يكبر. "وكان رأياً حسناً لو أراد الله به"، ولكن من تذرعو بالشرعية، وكان على رأسهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر - تمسكوا بالبيعة، وانتهى الأمر بتصفية مشرح الصقالبة وإجلاس هشام على كرسي الخلافة عام 366هـ<sup>[15]</sup>، وبعد ذلك لم يتجرأ أي أمير أموي من الظهور على مسرح الأحداث ويحاول منع وصول طفل قاصر إلى الحكم، وبالتالي كانت الساحة فسيحة أمام ابن أبي عامر، فتمكن بفعل قربه من والدة الخليفة من الترقى في الوظائف حتى وصل لأعلاها (وظيفة الحاجب)، وتخلص من كل معارضيه، وسيطر على الجيش، وحجر على الطفل هشام واستولى على الحكم، وامر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ونفذت الكتب، والمخاطبات والأوامر باسمه، وأخذ رجال الدولة والوزراء بتقبيل يده عند المثلول بين يديه، أي أنه صار في الحقيقة

(\*) تمت البيعة لطفل قاصر رغم ما في ذلك من مخالفة لشروط الإمامة، وقد شارك الكثير من الفقهاء والعلماء وقتذاك في صدور هذا المرسوم الذي كان يعد جريمة كبيرة في حق الأندلسيين. ينظر ابن عذاري: المصدر السابق، 354/2.

(12) المصدر نفسه، 249/2.

(13) أبو عبد الله محمد الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة (1966) ص17.

(14) لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال (بيروت، 1956) ص58.

(15) ابن عذاري: البيان، 260/2.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

حاكماً للأندلس يحكم باسم خليفة محجور عليه<sup>[16]</sup>.

لقد كان الحجر على هشام بداية الانقلاب الكبير الذي قام به ابن أبي عامر، والذي ركز فيه كل السلطات بيديه، ولم يبق للخليفة الشرعي سوى الاسم "وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي"، ولكي يغطي ابن أبي عامر على استبداده بالحكم كان يشيع بين الناس أن الخليفة فوض إليه النظر في أمر الملك، وأنه تخلى له عنه ليتفرغ لعبادة ربه<sup>[17]</sup>.

ويذكر ابن حزم في نقط العروس أن ابن أبي عامر عندما استولى على الحكم، وحجر على الخليفة الشرعي، فكر في عزل هشام وتنصيب نفسه خليفة، وأنه استشار نفعاً من الفقهاء، فاختلّفوا بين معارض ومؤيد، فرجع عن ذلك واكتفى بلقب المنصور<sup>[18]</sup>.

ويلاحظ أن المنصور رغم سطوته واستبداده بالحكم، لم يقدم على التلقب بلقب خليفة لأنه كان يعرف جيداً ما يمكن أن يُسفر على نقل الخلافة من الأمويين (قريش) إلى اليمانيين من نكأ جراح كان قد مضى عليها زمناً طويلاً، فقد نذرت في الأندلس الدماء بسبب صراعات القبائل العربية وانقساماتها إلى قيسية ويمانية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يُدرك أن الناس في الأندلس كانت تحمل الكثير من الحب، والولاء لبني أمية الذين رسخت دعائم الدولة على أيديهم، وبالتالي لا يستسيغون فكرة أن يكون الحكم في بيت آخر غير بيتهم<sup>[19]</sup>.

وبعد وفاة المنصور عام 393هـ بادر ابنه عبد الملك برؤية الخليفة هشام، واستصدر منه مرسوماً يخوله الحجابة، أي أن كل السلطات التي كانت لأبيه انتقلت إليه وفق الأصول وعلى يد صاحب الشرعية، وكان المنصور قد أوصاه وهو على فراش الموت بالحدز كل الحدز من الأمويين قائلاً: إياك أن تضع يدك في يد مروان ما طواعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم<sup>[20]</sup>، وكان المنصور في أعماقه كان يعلم مدى الجرم الذي ارتكبه بحقهم عندما سلبهم حقهم في الحكم وشردهم ونكل بهم.

كان عبد الملك يحرص - شأنه شأن أبيه - على حجب هشام عن الناس - ولكنه كان يعرف جيداً الحدود التي ينبغي أن يقف عندها، لقد جمع كل السلطات بيديه ولكنه لم يتجرأ على اللقب الخلافي، ولم يمس الشرعية، لكن الابن الثاني للمنصور المعروف بعبد الرحمن شنجول<sup>[21]</sup>، كان شاباً طائشاً غير مؤهل للحكم، بيديه انطلقت الشرارة الأولى للفتنة التي أدمت قرطبة قرابة ربع قرن من الزمان، إذ لم يمض شهر ونصف على توليه الحجابة حتى طلب من الخليفة هشام - الذي لم يعقب - أن يوليئه العهد من بعده، ففعل ذلك تحت الإكراه والتهديد، ويقال بأن الخليفة استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلمائها، فأقروه على ذلك، وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن قاضي الجماعة أبو العباس بن ذكوان، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد، ونستغرب هنا موقف بعض العلماء والفقهاء الذين أفتوا بجواز ولاية عبد الرحمن شنجول العهد، وحضروا البيعة وأيدوها، وأذاعوا حديثاً نسبوه إلى

<sup>[16]</sup> المقري: نفع، 397/1؛ وحسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشد، ط2 (القاهرة، 1999) ص395.

<sup>[17]</sup> ابن عذاري: البيان، 270/2.

<sup>[18]</sup> نقلاً عن شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف (القاهرة، 1997) ص33.

<sup>[19]</sup> عبد المجيد نعني: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس (التاريخ السياسي)، دار النهضة العربية (بيروت، د.ت) ص441.

<sup>[20]</sup> المرجع نفسه، ص471.

<sup>[21]</sup> غلب عليه اسم شنجول من أمه عبده بنت شنجة (سانشو) ملك نره (نافار)، حيث كانت تدعوه في صغره بشنجول تذكراً لاسم أبيها. ينظر ابن عذاري: البيان، 38/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

الرسول (ﷺ) قالوا فيه: "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من فحطان يسوق العرب بعصاه"<sup>[21]</sup>.

وعموماً فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن شنجول، وخرج في 15 ربيع الأول 399هـ مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل ابن برد، وذيل بشهادة قاضي الجماعة ابن ذكوان، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون ووزيراً، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلاً من أكابر أهل الدولة، وهو كتاب طويل جاء فيه أن الخليفة أمعن النظر فلم يجد في طبقات الرجال من أحياء قريش من يستحق أن يُسند إليه الأمر بعده، وبالتالي لم يجد أحد أجدر من عبد الرحمن يقلده الخلافة وذلك "الفضل نفسه وعلو منصبه مع تقواه وعفافه وحزمه..."<sup>[22]</sup> إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي لم يتحلى بها عبد الرحمن أصلاً.

لقد كان هذا المرسوم جريمة في حق الأندلسيين قاطبة، لأنه كان إنذاراً بوقوع الفتن التي سيعاني الجميع من ويلاتهما، ولكن اللوم هنا لا يقع على صاحب السلطة الشرعية الذي عُرف بضعفه وسوء نظره، ونقصان تدييره<sup>[23]</sup>، بل يقع على كل من شارك في خروج هذا المرسوم أو وقع عليه من الفقهاء، والوزراء، وغيرهم، سواءً من كان يحركهم الطمع في المناصب والحصول على المزيد من الأموال والثروات، أو من وقعوا تحت الإكراه والتهديد، أنهم بتوقيعهم على هذا المرسوم طعنوا الخلافة الأموية في مقتل، وقد أثبتت الأيام أنها بعد هذا المرسوم فقدت هيبتها ولم تستطع أن تقوم على قدميها كما كانت أيام الناصر والمستنصر، وقد عبر ابن سعيّد عن ذلك قائلاً: "كان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في بعض الأحيان على أبهة الخلافة، وقانون لهم في ذلك معروف، إلى أن كانت الفتنة، فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به"<sup>[24]</sup>.

قام المتملقون من وجوه الناس في قرطبة بتهنئة عبد الرحمن بهذه المنحة التي كانت في نظر البعض أعظم محنة، وأنشد البعض قصائد التهاني كأبي العلاء صاعد البغدادي، ولكن من كان على بصيرة كان يُعزي نفسه، ويكفكف دمعته، ومن ذلك قول الشاعر ابن أبي يزيد المصري أحياناً ينتقد فيها ابن ذكوان، وابن برد ويعتبرهما من أكبر المسؤولين على صدور هذا القرار المشؤوم:

أن ابن ذكوان وابن برد \* قد ناقضا الدين عين عهد  
وعاندا الحق إذا أقاما \* حفيد شنجه ولي عهد<sup>[25]</sup>.

ذهب عبد الرحمن في غروره وطيشه إلى أبعد مدى، فعين ابنه الطفل عبد العزيز في خطة الحجابة، واسيغ عليه لقب سيف الدولة، واعتقد بذلك أنه حقق مشروعه الكبير في نقل الخلافة للعالميين، وإن الأمور قد استقرت له، فأطلق العنان لأهوائه،

(21) ابن عذاري: البيان، 45/3.

(22) المصدر نفسه، 38/3-46.

(23) المصدر نفسه، ص38.

(24) المقرئ: نفع، 1/214.

(25) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية والدولة العامرية)، مكتبة الخانجي، ط4 (القاهرة، 1997) ص625.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

وانكب على لوهو وشرايه<sup>[26]</sup> "فكان يخرج من مية إلى منية ومن منتزه إلى منتزه مع الخياليين والمغنيين والمضحكين مجاهراً بالفنك وشرب الخمر"، حتى أن أحد ملوك الإسبان استهان بأمره وقال عنه: "لو أني نائم وأقبل عبد الرحمن بجميع جيوشه ما استيقظت له"<sup>[27]</sup>.

بلغ من استهتار عبد الرحمن شنجول أنه تلقب بلقب الخلافة قبل أوامه، كان إذا شرب الخمر يأمر صاحب شرطته ابن الرسان - وكان من سفلة القوم - أن ينادي في الناس يأمرهم أمير المؤمنين المأمون بكذا وكذا، فينادي بذلك، فيسأله شنجول؛ هل أنكر أحد الناس شيئاً، فيقول لا، فيأمره بأن يعاود ذلك القول في مواضع أخرى<sup>[28]</sup>.

لقد ابتليت الأندلس بهذا الرجل الطائش المتجرد من كل فضيلة، ولكن مما زاد الطين بلة أن البطانة التي أحاطت به لم تكن كأيام أبيه المنصور من أهل العلم والفضل والمعرفة، أو من القادة العسكريين، والمحاربين، ورؤساء القبائل كما كان الحال مع أخيه المظفر، وبالجملة فإن الرجل افتقر إلى المستشارين العقلاء، والمساعددين الأكفاء<sup>[29]</sup>، فكان ذلك من سوء طالع قرطبة وأهلها.

### المطلب الثالث : موقف البيت الأموي من انتقال الحكم للعالميين:

لم يرض أفراد البيت الأموي عن هذا التحول في الخلافة من البيت الأموي إلى بيت من البيوتات اليمينية، بل أن الأندلسيين أنفسهم لم يكن بوسعهم رؤية الخلافة في غير أحفاد عبد الرحمن الداخل الذي استقرت دولة الإسلام في الأندلس على يديه وأيدي أحفاده، وقد فهم المنصور والمظفر هذه الحقيقة، فانتزعا من الخليفة الشرعي كل السلطات، وحملوا كل الألقاب، إلا أن أحداً منهما لم يتجرأ على اللقب الخلافي ومحاوله أخذ الخلافة من بني مروان<sup>[30]</sup>؛ فكان شنجول بعمله المتهور الذي ينم على الجهل وعدم الدراية بالتاريخ قد لكأ جراحاً قديمة، واذكى ناراً خمد لهيها منذ أمد طويل، وبالتالي كان شنجول هذا نحساً وشؤماً على نفسه وعلى المؤيد، وعلى أهل الأندلس لأنه كما قال ابن سعيد: "انفتح منه باب الفتنة العظمى وفسد الناموس"<sup>[31]</sup>.

والجدير بالملاحظة أن المنصور أثناء حكمه الطويل الذي استمر لربع قرن من الزمان، كان قد عمل على إضعاف البيت أموي، وتشريد أفراد، أي أنه كما يقول مؤنس: "حطم البيت الأموي تحطيمها لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده"<sup>[32]</sup>، وبالتالي عندما تحرك أفراد البيت الأموي وبدأوا التدبير للتخلص من الاستبداد العامري، واستعادة حقهم المغتصب في الخلافة، لم يكن بينهم من يستطيع تسيير الأمور في مسارها الصحيح لأنهم كانوا أبعد ما يكون من حيث الدراية والخبرة بشؤون السياسة والحكم.

بدأت الاتصالات بين الناقلين على العامريين، وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار - أحد أحفاد الخليفة الناصر -

(26) ابن عذاري: البيان، 47/3، عنان: دولة الإسلام، ص 625.

(27) ابن عذاري: البيان، 39/3.

(28) المصدر نفسه، 49/3.

(29) ننعني: الدولة الأموية، ص 486.

(30) ننعني: الدولة الأموية، ص 484.

(31) نقلاً عن ضيف: عصر الدول، ص 33.

(32) مؤنس: معالم، ص 404.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

يخطط للتخلص من العامرين انتقاماً لوالده الذي كان قد قُتل على يد عبد الملك المظفر، وتوافق أن كانت الذلفاء - أم الحاجب المظفر - تتهم شنجول بقتل ابنها بالسهم، لذلك أخذت تسعى للانتقام منه، فاتصلت بالمروانيين ووعدتهم بالأموال الوفيرة<sup>[33]</sup> إن قرروا الثورة، فكانت هذه المرأة الدعامة المادية المتينة التي اعتمد عليها الانقلاب على العامرين<sup>[33]</sup>.

### دور الدعاية في إضعاف البيت العامري:

لم يكن آل عامر في نظر الناس سوى حفنة من الرجال المستبدين الذين استقووا على خليفة ضعيف وسلبوه حقه الشرعي في الحكم، وقد ترددت في قرطبة الكثير من الأشعار التي تشير إلى ذلك الاستبداد منها ما قيل على لسان هشام الخليفة:

أليس من العجائب أن مثلي \* يرى ما قل ممتنعاً عليه  
وتملك باسمه الدنيا جميعاً \* وما من ذاك شيء في يديه<sup>[34]</sup>

وقد تم التدبير أكثر من مرة للتخلص من العامرين، ولكنها كانت محاولات يائسة انتهت بالإجهاد عليها بكل قوة من قبل المنصور والمظفر، ولكن رغم ذلك كانت الاتصالات مستمرة بين أفراد البيت الأموي من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، وعندما تم الاتفاق على مبايعة محمد بن هشام سراً، قام الأخير بدعاية واسعة النطاق للإطاحة بالعامرين، فكان له رجال كثر انبثوا في أحياء قرطبة، واتصلوا بالناس، وعملوا على تشويه صورة شنجول مستغلين فرصة ابتعاده بالجيش عن العاصمة عندما خرج غازياً نحو الشمال؛ فكانوا: "يشنعون عليه تشانيع قبيحة"، ومن ذلك ما تم إشاعته من أن شنجول يستهزئ بالدين، فإذا سمع المنادي للصلاة يقول: "حي على الصلاة" يقول لو قلت حي على الكأس لكان خيراً لك، وأنه كان لا ينتهي عن شرب الخمر واللواط، وأعمال الشر<sup>[35]</sup>؛ فكان لهذه الدعاية الدور الكبير في تشجيع الناس في قرطبة على إعلان مقتهم للعامرين ورغبتهم في التخلص من الحكم العامري.

### بداية الثورة:

بعد أن تأكد محمد بن هشام من احتقان العامة ضد شنجول، تحرك نحو قصر قرطبة، وبدأ مع نفر من أصحابه ما كان عددهم يزيد عن اثنتي عشر رجلاً من القتلة والسفاحين المهجوم على صاحب المدينة (عبد الله بن عمر)، وللأسف الشديد فإن الرجل الذي كان يشغل هذا المنصب الهام، ورصدت عيونه التحركات المروانية، كان سكراناً يترنح بين قيتين تغنيانه، فتم قطع رأسه ورفع على رمح، أما جسده فقد ترك مطروحاً على الأرض تدوسه أقدام الثوار حتى تمزق إرباً إرباً، فكان لمقتله بهذا الشكل المروع أثره الكبير على هياج العامة، حيث علتهم الحماسة، وتشجعوا، وعبروا عن سخطهم من العامرين، وانضموا إلى محمد بن هشام، وكان فيهم "العزازين، والجزارين، والسفلة، وسائر غوغاء الأسواق"، وأمام إغراء الأموال لم يتوقف أحد عن الانضمام لمحمد بن هشام حتى أنه مضت بالناس في قرطبة أيام لم يعد يوجد فيها من كان يمتنهم مهن مثل الحجامة، والجزارة، والكنافة،

(\*) كان المنصور قد أودع عندها أموالاً جمّة، وأوصى ابنه عبد الملك بأن يتحفظ في استعمالها.

(33) ابن عذاري: البيان، 52/3.

(34) المصدر نفسه، 280/2.

(35) ابن عذاري: البيان، 53-49/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

والزبالة، بل أن المجرمين وأصحاب السوابق شاركوا في هذه الثورة وكانوا في صفوف الثوار، إذ تم إطلاقهم من السجون وبأمر من محمد بن هشام نفسه<sup>[36]</sup>.

وهكذا فقد التف رعاع قرطبة من المغامرين والمجرمين والأراذل حول محمد بن هشام، وأيدوا بيعته، وكان هو أصلاً من طبقتهم، وعلى شاكلتهم، وما عاش في حياته ولا خالط سواهم، ويعطينا انضمام هذه الفئات للثورة فكرة عن مدى التفاوت الطبقي الذي كان يعيشه الأندلسيون والتباين الكبير في أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي وجدت الطبقة المسحوقة الفرصة أمامها سانحة لتحقيق آمالها واستعادة حقوقها.

### موقف هشام المؤيد من الثورة:

عندما تعالی صباح العامة، وبدأوا يقتربون من القصر، أمر المؤيد بإغلاق أبوابه، وصعد إلى السطح واشرف على العامة بين مصنفين يحملهما خادمان له، وأشار إلى العامة بالسكون "فصاحوا به لا حاجة لنا بك وليس الملك من شأنك وهذا أولى منك"<sup>[37]</sup>. ويتضح من هذه العبارة:

- 1- رفض العامة لخلافة هشام التي كانت دائماً أسمىة.
- 2- تطلع العامة لمحمد بن هشام واعتباره أولى بالخلافة من صاحب الحق الشرعي الذي كان في نظرهم ضعيفاً أسلم أمور الأمة للعامريين.

وأمام تعالی الصيحات بالرحيل والتنازل عن الحكم، دخل المؤيد قصره وأمر جنده بعدم القتال، بينما أصر محمد بن هشام على اقتحام القصر، ووعد جنده - إن نجحوا - بجزيل العطاء، وعندما رأى المؤيد تحاذل من بالقصر عن نصرته راسل الناصر محمد بن هشام يطلب منه التوقف عن محاولة اقتحام القصر، ويعدده بأن يُقصي آل عامر ويعيد للأمويين مكانتهم السابقة، كذلك وعده بأن يقلده عهده ويشركه معه في أمره. لكن محمد بن هشام رفض رفضاً قاطعاً وصمم على اقتحام القصر، وانتهى الأمر بأن أمر المؤيد بفتح أبواب القصر، وتمت مبايعة محمد بن هشام بالخلافة، وتلقب بالمهدي، وأُجبر الخليفة الشرعي على التنازل عن الخلافة لأنه ليس أهلاً لها، وإقصائه لبني عمومته وتقليده شنجول ولاية عهده، وقد تم كل ذلك في يوم الأربعاء 17 جمادي الأولى عام 399هـ<sup>[38]</sup>.

### تدمير الزاهرة:

أعطى المهدي أوامره بعد أن نقل خزائن الأموال إلى قصر قرطبة وكانت لا حصر لها بنهب الزاهرة وتدميرها حتى لا يعود شنجول ويتمركز بها، ولا يمكن تخيل حجم الدمار والخراب الذي لحق بمدينة العامريين في ذلك اليوم، فقد كان جند المهدي من العامة كالجراد المنتشر ما أتوا على شيء إلا وقضوا عليه. لقد انتهت مدينة ملوكية إيما انتهاب، وأصبحت بين ليلة وضحاها

<sup>(36)</sup> المصدر نفسه، 56-55/3.

<sup>(37)</sup> ابن عذاري: البيان، 56/3.

<sup>(38)</sup> المصدر نفسه، 69-56/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

أثراً بعد عين، انتهبت العامة الأموال، والأسلحة، والخزائن، والأمتعة حتى اقتلعت الأبواب الضخمة والرخام من مكانه، وصار يباع في كل مكان، ويبيدي ابن عذاري تأسفه على دمار المدينة بما الشكل فيقول: "وما علم الناس مدينة بالأندلس بل ببلاد الإسلام كله كانت أعظم بركة في الجهاد والمال...".<sup>[39]</sup>

### مقتل شنجول ونهاية الحكم العامري:

بينما كان شنجول في قلعة رباح على وشك الدخول إلى أرض العدو وصله الخبر بقيام الثورة في قرطبة وتدمير الزاهرة، فأصابه جزع كبير، وخطب في جنده يدعوهم إلى تجديد البيعة له والوقوف معه ضد المنقلب على الشرعية محمد بن هشام ونصرة صاحب الحق الشرعي في الخلافة هشام المؤيد، فلم يمتنعوا عن ذلك، ولكنهم كما يؤكد ابن عذاري أضرموا خذلانه واتفقوا على ترك قتال أهل قرطبة<sup>[40]</sup>، وبالفعل عندما قرب الجيش من قرطبة "تسلل عنه الجند ووجوه البربر" ولحقوا بقرطبة خوفاً على أهاليهم وبايعوا المهدي<sup>[41]</sup>.

لم يبق مع شنجول إلا قلة قليلة من الجيش، فحاول بكل الوسائل أن يثبتهم على القتال معه، فكان يمنهم بالمناصب والزيادة في المرتبات، وفي هذا الشأن يورد ابن عذاري نقلاً عن ابن عون الله نصاً يبين فيه مدى اليأس الذي كان فيه شنجول والذي دفعه لشراء ولاء جنده بأي طريقة، يقول النص: "حدثني بعض أكابر عسكره (أي شنجول) أنه انتهى تحصيله لما عقد في تلك الأيام من الصكوك في الانهاض والتقويم، والتسويغ إلى خمسة آلاف وزيادة حتى لقد عدم الرقُ جملة واستعملت أجناس الأدم بدلاً من الصحف؛ فكانت قصة فاحشة خلفها مثلاً في الناس تُعرف إلى اليوم بالرياحية"<sup>[42]</sup>.

ولكن أليس من الغريب أن يتخلى الجيش وخاصة البربر (زناتة) عن نصرة شنجول، وهم من كانوا يعتبرون شيعة المنصور والدعامة التي اعتمد عليها في فرض سلطانه على الأندلس. لو حاولنا تقصي السباب وراء ذلك لوجدناها تلتخص في التالي:

- 1- خشية الجند على عيولهم في قرطبة من فتك الثوار بهم، لذلك بادروا بالتسلل واللحاق بقرطبة وتقديم الولاء للمهدي.
- 2- نفور كثير من الجند من شنجول لسوء أخلاقه وإغراقه في المنكرات، فكان طيلة الطريق في حملته إلى الشمال لا يتوقف عن شرب الخمر واللواط، وأعمال الشر.
- 3- شعور الجند بالذنب تجاه البيت الأموي لمناصرتهم وتأييدهم لشباب طائش اغتصب ولاية العهد بالقوة حتى "أن ذكرها (أي الخلافة) كان أشهى إلى نفسه من تسبيح خالفه"<sup>[43]</sup>.
- 4- لم يكن إخلاص البربر للعامة إخلصاً تاماً، فقد كانوا في الحقيقة جنداً مرتزقاً لا يدافع عن وطن، إنما يدافع عن حاكم

<sup>(39)</sup> ابن عذاري: البيان، 64/3.

<sup>(40)</sup> المصدر نفسه، 66/3.

<sup>(41)</sup> عبد الرحمن محمد بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العلمية، ط3 (بيروت، 2006) م4/179.

<sup>(42)</sup> البيان، 69/3.

<sup>(43)</sup> ابن عذاري: البيان، 66/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

ضمن لهم مصالحهم وأرزاقهم، فإذا رأوا أن مصالحتهم مع شخص آخر بادروا بتقديم فروض الطاعة والولاء له<sup>[44]</sup>.

وأخيراً أدرك شنجول فداحة العمل الذي قام به والذي أثار عليه نقمة البيت الأموي، فأصدر كتاباً تبرأ فيه من ولاية العهد، واقتصر فقط على الحجابة، بل وتمسح بمسوح الخادم الأمين، فدعا إلى نصرة الخليفة الشرعي المظلوم، والتمسك بطاعته، ولكن ذلك لم يفده في شيء، إذ انفض الجميع من حوله حتى أنه عندما وصل أرملاط بالقرب من قرطبة لم يكن معه إلا أحد النصاري وهو القومس بن غومس الذي نصحه بالفرار، وعندما علم المهدي بمروره أرسل من جد في البحث عليه حتى وجدوه، وبمجرد القبض عليه بادر وأعلن ولائه للمهدي، وأذل نفسه كثيراً وهو يستجدي جلاديه، ولكن ذلك لم يجده نفعاً، إذ قُتل ومُثل بجسده، وفُعل به أشياء فيها عظة وعبرة، فيقال بأن المهدي أمر بشق بطنه وإخراج أحشائه، ومعالجة الجسد بعقاقير لحفظه، ثم أعيد الرأس إلى الجسد وألبس قميصاً وسروالاً وسُمر على خشبة طويلة على باب السّدة، وأمر ابن الرسان - صاحب شرطته - الذي كان ينادي بالأمس القريب (هذا أمير المؤمنين) أن ينادي هذا شنجول المأبون، ثم يلعنه ويلعن نفسه، وفي رواية يسوقها "إبراهيم بن القاسم" عن أحد الأدباء الذين حضروا تلك الأحداث، أن شنجول عندما قُتل وضع جسده على بغل، وكان عارياً: "رأيت والله سفلة من أهل البادية تبصق دبره، وإن العامة تتضحك من فعلهم ولا أحد ينكر ما يرتكب منه"<sup>[45]</sup>.

### المطلب الرابع : الصراع بين الأمويين على السلطة :

استقبل القرطبيون العهد الجديد بمظاهر السرور والرضى، وأقاموا الولائم، والأعراس برحاب قرطبة وأرباضها، وظنوا أنهم تخلصوا من الاستبداد العامري، ولكن هذا الرجل الذي علقوا عليه الآمال لم يلبث أن خيبتها بمجونته وفسقه<sup>[46]</sup> حتى أن الناس في قرطبة أخذت تتحسر على أيام آل عامر "ولم تزل مناكيره تزيد حتى هانت إجمام آل عامر عند الناس وأقروا بظلمهم لهم"<sup>[46]</sup>.

لم يكن رجل الموقف، ولم يستطع إدارة الأمور وتوجيهها في مسارها الصحيح، ولأنه عاش في الأحياء الشعبية في قرطبة، أحاط نفسه بطائفة ممن كانوا على شاكلته<sup>[47]</sup>، ولذلك ارتكب الكثير من الأخطاء التي كانت عواقبها وخيمة على الأندلس:

1- أثبت أسماء الألوفا ممن تبعه من سفلة قرطبة وأرادها في سجل العطاء مكافأة لهم على تأييدهم ودعمهم له، مما جعل منهم حملاً كبيراً على خزانة الدولة، كما ألحق الكثير من هؤلاء بالجيش، وهم لا خبرة لهم ولا دراية بشؤون الحرب والقتال، فكانوا عبئاً عليه أكثر مما كانوا دعماً له<sup>[48]</sup>، ولكثرة من ألتحق بجيشه من العامة لم يعد يوجد في قرطبة من يمتحن مهن رذيلة مثل

(44) رجب محمد عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية، وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري (القاهرة، د.ت) ص 184.

(45) ابن عذاري: البيان، 73-69/3.

(\*) قال عنه أحد الشعراء:

قد قام مهدينا ولكن \* بملة الفسق والمجون

ينظر المقرئ: نفتح، 426/1، وقال ابن عذاري: "فظهر من فسه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها، فكان هذا من جملة أسباب

القيام عليه وإشعال الفتنة لديه، ولم يزل طول مدته مشتهراً بالفسق مظهراً للخلاعة لا يفيق من سكر، ولا يرع عن منكر بالنساء، والصقالبة، والملاهي" = البيان، 80/3.

(46) ابن عذاري: البيان، 63/3.

(47) مؤنس: معالم، ص 408.

(48) ننعني: الدولة الأموية، ص 504.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

الحجامة، والجزارة، والكنافة، والزبالة، وآثرهم على العبيد العامرية من الصقالبة وعلى الطائفة البربرية، وقد عبر ابن عذاري عن ذلك بقوله: "إقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة".

2- عين في الوظائف المهمة كالحجامة، والشرطة، وغيرها رجالاً من أقرائه لم يكن لهم دراية ولا خبرة، واستغنى عن خدمات رجال عرفتهم الأندلس، وكان لهم فضل وعلم، وأخلاق، فكان الحال "نكوب وزراء جلة، ونصب أضدادهم تقتحمهم العين هجنة وقماعة".

3- أسقط من الجيش نحو سبعة آلاف جندي بربري، وكان هؤلاء جند المنصور ودعامة الجيش الذي اعتمد عليه في رض سلطانه على الأندلس.

4- نفى بعض الفتيان الصقالبة العامرية، فاتجهوا إلى شرق الأندلس واستولوا على بعض الدن وملكوها.

5- الانقلاب على الشرعية بإعلان وفاة هشام المؤيد "وهذه الميثة الأولى الواقعة عليه من ميثاته".

وسنرى أن كل هذه الأعمال ستعود على الأندلس بالويلات، ولذلك لم يجانب ابن عذاري الصواب عندما وصف هذا الرجل بأنه: "أشأم خليفة على وجه الدنيا"<sup>[49]</sup>.

### بداية الفتنة:

بدأت الفتنة في قرطبة عندما ناصب المهدي البربر العداء، وأراد معاقبتهم على حُسن صنيعهم للأسرة العامرية، ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أن البربر في بداية الأمر رفضوا قتال أهل قرطبة مع شنجول وقدموا الولاء للمهدي، ولو كان هذا الرجل على شيء من العقل والدراية لقبل منهم طاعتهم، وحافظ على وحدة الجيش الأندلسي، وبالتالي لا نستغرب رفض البربر قرار المهدي إسقاطهم من الجيش وقطع أرزاقهم، وكان قد مضى زمن على وجودهم بالأندلس، وأصبحوا يعتبرونه وطناً لهم بدلاً عن المغرب بلادهم الأصلية.

كانت المعارضة في البيت الأموي قد بدأت تتشكل لأن المهدي كما يبدو خيب آمالهم بإغراقه في الفسق والفجور، واعتبروا ذلك إساءة بالغة لسمعة البيت الأموي الذي أنجب أمراء وخلفاء عظام، وبالتالي برز على مسرح الأحداث في قرطبة أموي جديد<sup>[4]</sup> استغل نقمة العناصر البربرية لخدمة أغراضه، لكن هذا الرجل لم يصمد هو وجموعه البربرية أمام حشود قرطبة، وأسوأ ما نتج عن هذه المحاولة الانقلابية هجمة شرسة من عامة قرطبة على دور البربر وممتلكاتهم، حيث أن المهدي أذن لهم بقتل البربر، ووعدهم بالمكافآت، بل جعل لرؤوسهم أثماناً؛ فكان المناادي ينادي: من أتى برأس بربري فله كذا وكذا. لقد نهب دور البربر، وسبيت النساء، وتم بيعهن في دار البنات، وقتلت النساء الحوامل، "وأمن أهل قرطبة في هذه القبائح حتى أخذهم الله بذلك عما قريب"<sup>[50]</sup>.

(49) ابن عذاري: البيان، 61/3-78.

(\*) هو هشام بن سليمان (الرشيدي).

(50) ابن عذاري: البيان، 81/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

لقد كانت جرائم شنيعة ارتكبتها عامة قرطبة بتحريض من المهدي في حق البربر، ويبدو أن المهدي عندما رأى أن المشكلة تفاقت، والأمر بدأ يخرج عن السيطرة، أصدر أوامره بالكف عن قتل البربر، وأعطاهم الأمان، ولكن بعد فوات الأوان. لقد ملاً الحقد الصدور، وما كان البربر يستحقون هذه المعاملة السيئة، وما كانوا ليسكتوا عن كل هذه الجرائم البشعة، وبالتالي أشعل هذا الرجل الأرعن يديه نار الفتنة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان أحق وأولى [51].

تجمع البربر في أرملاط - بناحية قرطبة - وساروا منها شمالاً إلى قلعة رباح، وقدموا على أنفسهم سليمان بن حكم، وبايعوه بالخلافة وتلقب بالمستعين [52]، فأصبح في الأندلس لأول مرة في تاريخها خليفتان أمويان في وقت واحد، وذلك من المفارقات العجيبة، فجدهم الداخل الذي أشاد الدولة الأموية وحصل على اعتراف تاريخي من عدوه المنصور العباسي بأنه صقر قريش كان يتحرج من التلقب بلقب خليفة، ولكن الأحفاد الآن - وما أبعدهم عن الجد - لا يجدون حرجاً في ذلك، بل ولا يتورعون في سبيل اللقب الخلافي عن الاستعانة بعدو الإسلام في أرض الغرب (الإسبان والفرنجية).

كان النصراري في الشمال الذين ركعهم الناصر والمستنصر المنصور يرقبون الموقف المتردي في قرطبة ويأملون التدخل للحصول على الأموال والحصون، وبالتالي عندما اتصلت الأطراف المتنازعة (المهدي والمستعين) بسانشو غرسيه أمير قشتالة لم يتورع عن تقديم العون للمستعين ودعمه بالجند مقابل تسليم بعض الحصون الهامة على نهر الدويرو [53].

### وقعة قنتيش:

عندما سمع المهدي بتحالف المستعين مع القشتاليين، وتحركهم من الشمال نحو قرطبة، بادر بتحسين المدينة، وحفر الخنادق، وترتيب جنوده الذين كان أغلبهم من عوام قرطبة ممن لا قدرة لهم ولا خبرة في أمور الحرب والقتال، وقد عبر ابن عذاري عن هذا المشهد بقوله: "رتب قواده وجنده ومن معه من العامة على الحفائر ... ومعهم قوم من الحواتين والجزارين وأشباههم قد لبسوا الدروع عليهم والبنود والطبول بين أيديهم فكانوا فضيحة وضحكة لمن رآهم ... وهو مع ذلك لا يفريق من سكر" [54]. ولا نريد هنا الخوض كثيراً في تفاصيل مؤلمة؛ فجيوش عامي على رأسه خليفة سكران لا ينتظر منه أن يحقق نصر حاسم. لقد تمكن المستعين وحلفاءه النصراري من تحقيق نصر كبير على القرطبيين في 14 ربيع الأول سنة 400 هـ، وحسب رواية الحميدي فقد راح من القرطبيين في وقعة قنتيش (قنطش) أكثر من عشرين ألف رجل فيهم من الخيار وأئمة المساجد، والمؤذنين خلق عظيم [55]\*. ويرى مؤنس أن هذه المعركة كانت الضربة القاضية للجيش الأندلسي، وأن من تولوا الأمر بعد ذلك لم يتمكنوا من

(51) المصدر نفسه، 75/3.

(52) الحميدي: جذوة المقتبس، ص18.

(53) نعني: الدولة الأموية، ص506.

(54) البيان، 88-87/3.

(55) جذوة المقتبس، ص188.

(\*) يجعل ابن عذاري نقلاً عن كتاب الاقتصاب عدد القتلى في قنتيش من القرطبيين ثلاثين ألف بينما يشير في موضع آخر بأنه أحصى من قُتل من أهل قرطبة فكانوا نحواً من عشرة آلاف = البيان، 83/3، 90.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

إنشاء قوة عسكرية لها قيمة في الأندلس<sup>[56]</sup>.

### العودة إلى الشرعية:

عندما رأى المهدي هزيمة جنده، وتردي الموقف في قرطبة، حاول أن يُصلح ما أفسده بطيشه وتهوره، وقرر إعادة هشام المؤيد - الخليفة الشرعي - إلى الحياة، وكان قد أعلن فيما سبق وفاته، وأشهد الوزراء، والفقهاء على ذلك ودُفن<sup>[\*]</sup> في مشهد مهيب يوم 27 رمضان 399هـ، وكان يهدف من ذلك إلى:

1- تثبيت نفسه في الحكم كنائب وحاجب للخليفة الشرعي (المؤيد).

2- دفع دعوى المستعين في الحكم.

وحسب الرواية التاريخية فإن المهدي أظهر المؤيد من محبسه وأجلسه في مكان بارز على شرفة القصر، وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر يخبرهم بأن الخليفة الشرعي مازال حياً، وأنه الإمام الشرعي، وأن المهدي نائبه، فاستهزأ البربر به وردوا عليه قائلين: "سبحان الله يا قاضي يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه"<sup>[57]</sup>، وأبدى البربر تمسكهم بخلافة المستعين الذي أقام دولته بسيوف نصارى قشتالة.

وهنا لابد لنا من الوقوف على حال النصارى بعد انتصارهم في وقعة قنتيش:

1- دخول القومس ورجاله قرطبة حيث استقبلوا بحفاوة بالغة وأغدقت عليهم الهبات.

2- استبقاء مائة نصراني في قرطبة.

3- إرجاء تسليم الحصون حتى تستقر الأمور للمستعين<sup>[58]</sup>.

### دولة المهدي الثانية:

دخل المستعين قرطبة وبدأ يرتب أمورها، بينما اختفى المهدي المهزوم عن الأنظار، وأخذ في التنقل من دار إلى دار، وهو كعادته "لا يصحو من سكر ولا يرع عن فسق"<sup>[59]</sup>، وقرر التوجه إلى منطقة النغور لأنها لازالت باقية على طاعته، وبدأ يتصل بالفرنجية<sup>[60]</sup> للحصول على الدعم والاستعداد لجولة ثانية مع المستعين.

وافق أمير برشلونة الكونت رامون بوريل، وأمير أورقلة الكونت أرمنجو على تقديم المساعدة ولكن بشروط باهظة منها:

<sup>(56)</sup> معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 411.

<sup>(57)</sup> كان في قرطبة رجل ذمي يشبه هشام شبيهاً قوياً، فأخفى المهدي الخليفة المؤيد وأعلن وفاته، ودفن الرجل الذمي على أنه الخليفة الشرعي هشام = البيان، 78/3.

<sup>(58)</sup> ابن عذاري: البيان، 89/3.

<sup>(59)</sup> المصدر نفسه، 91/3.

<sup>(60)</sup> المصدر نفسه، 92/3.

<sup>(60)</sup> عبد الواحد المراكشي: المعجب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العلمي، مطبعة الاستقامة، ط 1 (القاهرة، 1949) ص 89.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

- 1- تسليم مدينة سالم قبل التحرك.
- 2- تقديم الطعام والشراب للجنود النصاري.
- 3- يدفع في كل يوم مائة دينار للأميرين، وديناران لكل جندي.
- 4- أن يغنم النصاري كل ما يتحصلون عليه من معسكر البربر " وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم لا يحول بينهم وبينهم" [61].

لقد تنازل المهدي بمنتهى السهولة، وفي سبيل الكرسي والسلطة عن مدينة مهمة كانت تعتبر قاعدة أمامية في منطقة النغر الأوسط تحمي ظهر المسلمين طالما أولاهها خلفاء عظام كالناصر والمستنصر والحاجب بالعناية والاهتمام، وهي المدينة التي حوت رفات المنصور، وحسب الرواية التاريخية فإن هذا المستهتر أمر بإخلاء المدينة من سكانها المسلمين تمهيداً لدخول النصاري إليها، وبالطبع كان أول عمل قام به الفرنجة بعد دخول المدينة تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة تفرع فيها النواقيس، فاستحق المهدي من ابن عذاري وصفه بالفاجر [62] لأنه تهاون في أمر الدين والذود عنه.

### وقعة عقبة البقر:

وبناءً على هذه الشروط المخزية تقدم المهدي ومعه تسعة آلاف نصرائي صوب قرطبة، وحدث لقاء ثان بين المتنازعين على السلطة عند عقبة البقر قرب قرطبة [63]، وذلك في منتصف شوال 400هـ، وكان القتال شديداً بين الطرفين قُتل فيه الكثير من الفرنجة في مقدمتهم الكوت أرمقند (أرمنجو)، وانهمز سليمان والبربر ودخل المهدي القصر وجدد البيعة لنفسه، وقام بمطاردة البربر الذين انسحبوا نحو الجنوب، ووقعت معركة أخرى طاحنة عند وادي آره [64] انهزم فيها المهدي والإفرنج أعظم هزيمة، وقُتل فيها من الإفرنج أكثر من ثلاثة آلاف نصرائي [65]، وهنا لابد لنا من إيراد هذا النص الذي يبين تلاعب ساسة ذلك العصر بمصائر الناس الأبرياء، إذ ارتكب أهل قرطبة وبتحريض من المهدي كالمرة السابقة جرائم فظيعة في حق البربر كان من الصعب نسيانها. يقول المؤرخ إبراهيم بن القاسم:

لما أتى ابن عبد الجبار (المهدي) وواضح إلى قرطبة قتلوا كل متشبه بالبربر، وكل عدوى، ومن لم ير العدو ولا سمع بما إسرأفاً وتحاملاً وجرأة على الله سبحانه وطغياناً حتى أن كل من بينه وبين واحد عداوة قال هذا بربري فقتل، ولم يُسال عنه، وقتلوا الأطفال، وشقوا بطون

[61] ابن عذاري: البيان، 94/3؛ عنان: دولة الإسلام، ص 647.

[62] البيان، 94/3.

[63] الحميدي: جذوة المقتبس، ص 19.

[64] يقال بأن المرتزة الفرنجية الذين قتلوا في معركة آره كانوا يحملين بأموال تفوق الوصف كانوا قد سرقوها ونهبوها من الناس ومن ساحة القتال، "وكان ممن قُتل في المعركة اليهودي وزير ملك الإفرنج فوجد البربر في مضربه ثلاثين ألف متقال، ووجدوا على بطون الإفرنج مناطق مملوءة دنائير ودرهم مما يتجاوز الوصف". ينظر البيان، 98/3.

[65] في هذه المعارك الطاحنة بين المهدي والمستعنين في سبيل الحكم، كان هناك من يظن أن هذه الحرب جهاداً في سبيل الله، فعندما لاحق المهدي مع الفرنجة قوات البربر التي آثرت الانسحاب نحو الجنوب أورد ابن عذاري عبارة واصفاً حال المقاتلين: "وسار ابن عبد الجبار ومعه كل من قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة والبوادي، وهم يرون أنه الجهاد الأكبر..." ينظر البيان، 98/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

الحوامل، وأخذوا ابنة رجل من البادية وكانت جميلة حسنة، وعرف أبوها العالج الذي أخذها فوقف إلى واضح وقال له فلاناً العالج أخذ ابنتي وليست بربرية فقال له لا تتكلم في شيء من هذا فما لي ردها من سبيل وعلى ذلك عاهدناهم فمضى الرجل باكياً إلى العالج ورغب إليه في ردها عليه وبذل له أربعمئة دينار فأخذها منه العالج وقتله، وهذا من أنكى الأمور وأقبحها أن هذا الرجل المظلوم سار ليفتدي ابنته فأخذ ماله وقُتل وذهبت نفسه، وماله، وابنته، ولم يغير ذلك أحد من أهل قرطبة ولا أنكره<sup>[64]</sup>.

وللأسف الشديد فإن هذه الفتنة بينت أن الانهيار الأخلاقي قد عم الكثير من الناس، فانتشرت بينهم عادات سيئة مثل السرقة، والنهب، والاعتصاب، والتعدي على الحرمات، بل أن الدماء هانت عليهم كثيراً حتى عُدت كلمة بربري (تهمة) كفيفة بقبر أي شخص، واستخف أهل قرطبة بالإسلام، فلم يعد يحرك مشاعرهم ويستفزها تطاول النصارى على الدين الإسلامي، فقد وقف في هذه الفتنة رجل نصراني في أعظم شوارع قرطبة ورفع عقيرته بسبب الرسول (ﷺ)، فلم يُحرك أحد ساكناً ومضى كل من استمع لشتائمه لشغله وكأن شيئاً لم يكن، ولذلك لا نستغرب عندما نقرأ أن الفرنجية الذين استعان بهم المهدي وقدم لهم تنازلات مخزية كانوا عندما يستعمون للأذان يرددون "قولاً لا يذكر فلا يعترض عليه أحد"، والأسوء من ذلك أن أهل قرطبة الذين تقاتلوا مع البربر ومزق بعضهم بعضاً وهم مسلمون، كانوا يتباكون عندما غادرهم النصارى "حتى كان بعضهم يلقي بعضاً فيعزيه كما يعزى من فقد أهله وماله أسفاً على رحيلهم وجزعاً من وصول البربر إليهم"<sup>[65]</sup>.

لقد تردت أحوال قرطبة كثيراً بسبب الصراع على السلطة بين المرابطين (المهدي والمستعين) وكان الوضع كالتالي:

- 1- المهدي وأتباعه من الأندلسيين داخل أسوار قرطبة التي أُحيطت بخندق مبالغة في التحصين وخوفاً من هجوم البربر.
- 2- المستعين وأتباعه من البربر خارج أسوار قرطبة وتمركزهم في جبل بُبشتر الحصين، واتخاذهم مركزاً يغيرون منه على قرطبة ونواحيها.

وعبثاً حاول المهدي السيطرة على الأمور، وقام بفرض المزيد من الضرائب على أهل قرطبة وخاصة التجار للحصول على الأموال لتمويل حربه ضد المستعين، وعندما ضاق الفتيان العامرية وعلى رأسهم واضح ذرعاً من استهتاره ومجونه، وعكوفه على الزنا والشرب وجوره على الرعية دبوا أمر قتله والتخلص منه وكانت نهايته نهاية تليق بالطغاة المستبدين، ويلخص ابن عذاري ما تم بالعبارة التالية: "وبعث واضح رأسه إلى البربر ونصب جثته أياماً ثم دُفن في مرحاض تحت خشب المصلوبين وأراح الله من شره وفسقه"<sup>[66]</sup>.

(64) البيان، 97/3.

(65) البيان، 99-98/3.

(66) البيان، 100-99/3.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

### العودة إلى الشرعية للمرة الأخيرة:

في ذي الحجة 400هـ أعاد الفتيان العامرية هشام المؤيد إلى الخلافة، وجدد الناس له البيعة، وتولى واضح الحجابة، لكن البربر لم يرضوا بذلك وتمسكوا بخلافة المستعين، وبسبب الجرائم التي ارتكبتها أهل قرطبة بحق البربر كان من الصعب أن تهدأ النفوس وسيطرت على البربر الرغبة في الانتقام، واستمروا بضعة أشهر يغيرون على أرباض قرطبة ويعيثون فيها تخريباً، وقتلاً، ونهباً<sup>[67]</sup>، فكان نتيجة ذلك انتشار الجوع، والمرض بين القرطبيين، ولكنهم مع شدة حالهم ما كانوا يتنازلون ويرضون بالصلح مع البربر "ومن ذكر الصلح قُتل حتى أن رجلاً من وجوه أهل العلم قال في الجامع اللهم أصلح علينا فقتل في مكانه، وقال آخر في الجامع إن الله أحب الصلح أمر به فقتل في الحين..."<sup>[68]</sup>.

### النصارى يطالبون بتسليم الحصون:

بينما قرطبة تعاني من انعدام الأمن، وغلاء الأسعار، وفقدان الطعام، وتردي الأوضاع، وصلت سفارة من سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة تطالب بتسليم الحصون الواقعة على الحدود والتي سلم فيها المستعين مقابل الحصول على الدعم النصراني ضد المهدي، وبالطبع لم يجد هشام المؤيد وواضح بدأ من الموافقة، وذلك اتقاء عدوان النصارى من جهة، واتقاء تحالفهم مع البربر من جهة أخرى، وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة، وكتب محضر رسمي بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى يقال أنها أريت على المائتين، ومنها معاقل هامة، كانت قواعد أمامية للمسلمين مثل شنت إشتين، وقلونية، وأوسمة، وغرماج، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول، وتُركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى<sup>[69]</sup>، وبذلك أضاع الأحفاد ما أشاده الأجداد.

لقد ضاق الناس والجند ذرعاً من تردي الأوضاع في قرطبة، وانفلت زمام الأمور من يد واضح حتى أن الجند تجرأوا عليه وقاموا بشتمة وسبه، ولذلك قرر الهرب تاركاً قرطبة وأهلها لمصيرهم المظلم، ولكن الجند أحسوا به، وتمت معاقبته على يد بعض أكابر الجند العامرية، وصدورت الأموال التي كان ينوي الهروب بها<sup>[70]</sup>.

أظهر المؤيد التجلد وحاول إدارة الأمور بنفسه، فراسل البربر وسليمان ودعاهم إلى **حقن الدماء** ودرأ الفتنة، لكن المستعين رفض رفضاً قاطعاً، ولم يتنازل البتة عن الخلافة. لقد عم البلاء قرطبة، وازدادت الأسعار، وشحت المؤن حتى لجأ الناس إلى أكل الدم من مذابح البقر والغنم، بل واكلوا الميتة، ويدي ابن عذارى تعجبه من شيوع الرذائل والمنكرات بين أهل قرطبة، فرغم البلاء والمحق "فشرب الخمر ظاهر، والزنا مباح، واللواط غير مستور، فلا ترى إلا مجاهراً بمعصية"<sup>[71]</sup>. ويقال بأن المؤيد عندما اشتد الحال وعجز عن إيجاد مخرج بكى بكاءً شديداً واعتذر عن عجزه وقصوره، وترك الأمر للوزراء، وقد حاول أهل قرطبة فك الحصار المضروب عليهم، فكانوا يخرجون من مدينتهم مرة بعد مرة يناوشون البربر الذين كانوا يُنزِلون بهم أشد الضربات، وعندما

(67) الحميدي: جذوة المقتبس، ص19.

(68) ابن عذارى: البيان، 103/3-102/3.

(69) عنان: دولة الإسلام، ص651.

(70) ابن عذارى: البيان، 103/3، 105.

(71) المصدر نفسه، 105/3-113.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

تفانم الحال بالقرطبيين أذعنوا للصلح بعد أن رفضوه في السابق رفضاً باتاً، وفتحوا أبواب المدينة في 403هـ، ولكن البربر عندما دخلوا لم يراعوا الأمان الذين أعطوه للقرطبيين، ارتكبوا جرائم إنسانية مروعة، سلبوا، ونهبوا، وحرقوا الدور، واغتصبوا النساء<sup>[72]</sup>، كل ذلك كان انتقاماً من أهل قرطبة الذين قاموا بنفس الأعمال مع البربر في المرات السابقة. لقد سيطرت الأحقاد والضغائن على الجميع، فتناسوا الصالح العام، وأضعفوا دولة الإسلام في الأندلس.

وفي أواخر شوال 403هـ دخل المستعين القصر<sup>[71]</sup> واستدعى المؤيد ووبخه على موقفه، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره، وتنازل له عن الخلافة، وتختلف الروايات حول مصير المؤيد، بعضها تقول بأن المستعين قتله بعد دخوله القصر، وبعضها يقول بأن هشاماً فر من محبسه وعاش بقية أيامه خامل الذكر، ويرجح ابن بسام الرواية الأولى، ويشير إلى أن علي بن حمود عندما دخل قرطبة وأسقط المستعين من الخلافة سأل عن قبر هشام وأمر بفتحها، ولما تأكد من شخصه دفنه بالقرب من أبيه الحكم وانتقم من قاتله المستعين<sup>[73]</sup>.

وبذلك ينسد الستار عن حياة خليفة انعقدت له البيعة أكثر من مرة، ومات وأُعيد إلى الحياة ليكون سنداً شرعياً يتكأ عليه الطامعون في السلطة الذين لم يروا غضاضة في سبيل الظفر بالخلافة من تدمير مدن ملوكية كالزاهرة، وإشاعة الفوضى والفتن وتعريض البلاد للخراب، وبث الأحقاد والضغائن بين الأندلسيين، وتمكين العدو اللدود (النصارى) من التدخل في الشؤون الداخلية، والحصول على حصون ومدن هامة كانت تعتبر خطوط دفاع أممية عن دولة الإسلام في الأندلس.

### المطلب الخامس : التنازع على الخلافة بين الحموديين والأمويين والغاء الخلافة:

استمر الطامعون في السلطة يتلاعبون باللقب الخلافي، ويستترون وراءه لتحقيق مآربهم وأطماعهم الشخصية، فعندما أعلن علي بن حمود الإدريسي أن الخليفة هشام المؤيد ولاه عهده، وأوصى إليه بالخلافة، وأقام خلافة علوية في قرطبة عام 407هـ<sup>[74]</sup>، كانت الأحداث تتطور بشكل كبير في شرق الأندلس، فقد قام الفتى الصقلي خيران العامري بعدما تأكد من موت المؤيد بإعلان خلافة أموي جديد (المرتضى)، وكاد القتال يقع بين الخليفين (الأموي والعلوي) لولا قيام ثلاثة من فتيان القصر الصقلية من موالي بن أمية بقتل علي بن حمود في حمام قصره عام 408هـ ثم أن الخليفة الأموي لم يلبث أن قُتل هو الآخر بعد غدر مواليه العامريين به بتحريض من خيران العامري<sup>[75]</sup>.

لقد تقاتل بنو حمود مع بني أمية حول الخلافة، وتقاتل بنو أمية مع بعضهم البعض، وكادوا أن يفنوا أنفسهم، ولعب الصقلية في هذه المرحلة دوراً سيقاً، فقد كانت رقاب الخلفاء بأيديهم، وكنوا يتحكمون في تولية الخلفاء وعزلهم، بل قاموا بالاعتداء عليهم وقتلهم، ويصور لنا ابن حيان - وكان شاهد عيان - الحالة المزرية التي وصل إليها أحفاد الخليفة الناصر، فيقول بأن وجهاء

(72) ابن عذاري: البيان، 3/115

(73) كافأ المستعين البربر على تأييدهم له، فقام بتوزيع بعض كور الأندلس بين أنصاره من رؤساء القبائل البربرية، مما أدى إلى فرار بعض الفتيان (الصقلية) العامرية إلى شرق الأندلس خوفاً على أنفسهم من بطش البربر، فقاموا بتكوين دويلات لهم في شرق الأندلس. ينظر ابن عذاري: البيان، 3/113-115.

(74) أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، ط1 (بيروت، 1979) ج1، ح1/41-42.

(75) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(75) ابن عذاري: البيان، 3/120-122.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

قرطبة ومشيختها بعد انتهاء حكم الحموديين عام 414هـ رأوا إعادة الخلافة لبني أمية وقرروا اختيار أحد ثلاثة كانوا يعدون الأفضل لتولي الخلافة، وبينما هم في المسجد يستعدون للاختيار، إذ بأحد أولئك الثلاثة وهو المستظهر يقتحم المسجد في خلق عظيم من الجند والعامه ويفرض على الجميع اختياره، وكان من أعانه على ذلك الفتيان الصقالبة وعلى رأسهم محمود وعمير، وللأسف الشديد فإن الفتيان الصقالبة لم يمهلوا المستكفي طويلاً - رغم امتداح المؤرخين لخصاله - فلم يعجبهم استقباله لبعض البربر وردهم إلى قرطبة، فحرضوا العامة على الثورة عليه وأسقطوه، وأقاموا مكانه ابن عمه (المستكفي) بعد سبعة وأربعين يوم فقط<sup>[76]</sup>، وقد بلغ تطاول الصقالبة حداً جعلهم يتعدون على حريم الخليفة المقتول "وسبي أكثرهن الدائرة (الصقالبة) وحملوهن إلى منازلهم علانية، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في تلك الفتنة"<sup>[77]</sup>.

استمرت قرطبة تتخبط بتخبط من توالي عليها من الخلفاء الضعاف، ترهقها الأزمات والنكبات، وبات واضحاً عجز البيت الأموي عن الإمساك بزمام الأمور، وكان آخر خلفاء بني أمية (هشام المعتد) عديم الخبرة في شؤون الحكم والسياسة، غارقاً في المجون والخلاعة، ومعاشرة أهل السوء، وقد بدا للوهلة الأولى سوء تصرفه، وعدم درايته عندما قدم على سائر الوزراء رجلاً حائكاً كان صديقاً له في شبابه حيث أطلق يده وأعطاه سلطات واسعة، وكان أول ما قام به هذا الوزير تعيين من هم على شاكلته في الوظائف، فكانوا غاية في الاستهتار والظلم مما جعل أحد شعراء العصر يستهزئ بالاثنتين (الخليفة والوزير) معاً:

هبك كما تدعى وزيراً \* وزير من أنت يا وزير

والله ما للأمر معنى \* فكيف من وزر الأمير<sup>[78]</sup>

ولم تلبث العامة في قرطبة أن هاجت وقامت بقتل الوزير (القزاز) وهاجمت القصر الخلافي، وكان من بين المهاجمين مغامر أموي جديد هو (أمية بن العراقي) وهو لا يقل عن المعتمد جهالة وسفاهة، وهنا تدخلت مشيخة قرطبة ووزرائها بزعامة أبي الحزم بن جهور، فتصدوا للعامة، وكفوا أيديهم عن النهب والسرقة، ومن أعجب ما حدث في ذلك اليوم أن بعض العقلاء نصحوا أمية من الخوض في الفتنة وحذروه من القتل بسبب تقلب أمزجة أهل قرطبة وأهواءهم فقال لهم: "بايعوني اليوم واقتلوني غداً"<sup>[79]</sup>، وفي هذا دلالة قاطعة على حرصه الشديد على تولى الخلافة رغم قلة الخبرة والدراية، ولذلك سئم أهل قرطبة من البيت الأموي الذي طالما أيدوه ووثقوا فيه وعلقوا الآمال عليه حتى أن الناس كانوا يعتقدون أن أمور الأندلس لا تستقيم إلا بتولي زمام الأمور واحد منهم، ولكن توالي النكبات عليهم في عصر الفتنة جعلهم يرون عدم أهليته لتولي مهام منصب الخلافة، وبالتالي قرر مشيخة قرطبة إلغاء الخلافة عام 422هـ "ونودي في الأسواق والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكتمهم أحد"<sup>[80]</sup>.

ولكن إلغاء الخلافة لم يكن حلاً ناجعاً وبلسماً شافياً لجروح الأندلسيين، لأن الخلافة كانت رمزاً لوحدة الأندلس،

<sup>[76]</sup> ابن بسام: الذخيرة، ق1، 1، 49-54.

<sup>[77]</sup> ابن عذاري: البيان، 3/139.

<sup>[78]</sup> ابن عذاري: البيان، 3/147.

<sup>[79]</sup> المصدر نفسه، 3/151.

<sup>[80]</sup> المصدر نفسه، 3/152.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

وغياب هذا الرمز لم يكن يعني إلا شيئاً واحداً هو الانفصام والتجزئة، وقد أوجز المقرري ما نتج عن هذا القرار بعبارة بليغة قال فيها: "انقطعت الدولة الأموية عن الأرض، وقام الطوائف بعد انقراض الخلافة، وانتزى الرؤساء والأمراء من العرب والبربر، والموالى (الصقالبة) بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض ودفعوا الجزية للنصارى"<sup>[81]</sup>.

ومن خلال ما سبق عرضه نصل إلى استخلاص النتائج التالية:

- 1- أضعف المنصور الخلافة عندما قام بالفصل بين السلطتين الروحية والزمنية لمنصب الخلافة.
- 2- عندما طمع عبد الرحمن شنجول في ولاية العهد، وجه الضربة قاضية للخلافة لم تستطع بعدها أن تقوم على قدميها.
- 3- تفضيل المنصور للبربر على العرب في الجيش ولد الضغائن والأحقاد، وحول العصبية العربية القديمة إلى نوع من التكتل في مواجهة العناصر الطارئة.
- 4- تمزق النسيج الاجتماعي في الأندلس بسبب الأحقاد والضغائن، فأغرق الجميع في الانتقام، وتناسوا الصالح العام للأندلس.
- 5- الاستهتار بالدماء التي كانت تُسفك لأهون الأسباب، فراح ضحية التطاحن على السلطة آلاف الأبرياء من المسلمين.
- 6- التناحر على السلطة بين خلفاء ضعاف، واستقواء بعضهم على بعض بالنصارى، وتقدم التنازلات المخزية لهم.
- 7- بيع بعض الفقهاء والعلماء دينهم بعرضٍ من الدنيا وهم من بصالحهم يصلح الناس وبفسادهم يُفسدون.
- 8- تلاعب البربر والصقالبة بمصائر خلفاء عصر الفتنة، فأبقوا من أرادوا، وخلعوا وقتلوا من لم يحقق لهم مصالحهم.
- 9- خروج الكثير من الفتيان الصقالبة إلى شرق الأندلس، وتأسيس دويلات لهم هناك حتى قبل أن تلغى الخلافة، فكان الصقالبة شأنهم شأن البربر من العناصر التي أضعف الخلافة وعجلت بسقوطها.
- 10- شيوع الرذائل والمنكرات بين العامة والخاصة في قرطبة، فكان أغلب خلفاء الفتنة يشربون الخمر، ويتعشقون الغلمان، ويكثرون اللهو مع الجوّاري، ومن كانت هذه صفاتهم كيف يستطيعون إدارة الأمور في وجهها الصحيح.
- 11- تدمير عمران قرطبة وتوالي الأزمات الاقتصادية مما أعيا أهلها.
- 12- بروز طبقة العامة في هذه المرحلة ودخولهم الجيش، وتصدر المشهد السياسي الكثير من الشخصيات ممن ليس لهم خبرة ولا دراية في شؤون الحكم والسياسة.
- 13- كان النصارى في الشمال يرقبون الموقف المتردي في قرطبة، ويقدمون المساعدة لطرف ضد آخر، وفي أحيان كانوا يقفون موقف المتفرج ينظرون إلى الأطراف المتنازعة تأكل بعضها البعض حتى تحور قواها، فتحين الفرصة لهم للتدخل والمضي في مشروعهم الهادف إلى استرداد ما بأيدي المسلمين من أراضي.

(81) نفع الطيب، 438/1.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

14- وأخيراً لو قيض لله للأندلس شخصية فذة كالناصر، لكان من الممكن أن تستعيد الخلافة هيبتها، وتواصل الصعود حضارياً، ولكن كل من حكم في هذه الفترة كانوا زعانف البيت الأموي ممن شردهم المنصور واضعف قدراتهم، فلم تكن لهم الخبرة والدراية في شؤون الحكم والسياسة وإدارة الدول، فارتكبوا الكثير من الأخطاء التي كانت عواقبها وخيمة على الأندلس.

## العدد الخمسون / يناير / 2021

### قائمة المصادر والمراجع

#### أولاً: المصادر الأولية:

- (1) ابن بسام الشنتري، أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، ج1، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1979.
- (2) ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.
- (3) ابن خلدون، عبد الرحمن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج4، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.
- (4) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله: تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية السويقي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
- (5) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ط3، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983.
- (6) الحميدي، أبو عبد الله: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1996.
- (7) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949.
- (8) المقرئ، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

#### ثانياً: المراجع الثانوية:

- (1) ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، القاهرة، 1997.
- (2) عبد الحليم، رجب محمد: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، (د.ت).
- (3) عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية والدولة العامرية) ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997.
- (4) مؤنس، حسين: شيوخ العصر في الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، 1997.

العدد الخمسون / يناير / 2021

- (5) مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط2، دار الرشاد، القاهرة، 1999.
- (6) ننعني، عبد المجيد: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس (التاريخ السياسي) دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).